

الصين بعيون عربية

ملاحظات حول التوجهات الدولية

د. محمد عبد العزيز ربيع

كتب الصديق سمير حباشنة مقالا بعنوان "الصين بعيون عربية" أشار فيه إلى الحوار العربي الصيني الذي تم في أواخر شهر سبتمبر 2010، وأشاد بدور الفريق العربي الذي شارك في ذلك الحوار. نعم.. لقد كان الفريق العربي متكامل من حيث التخصصات، وعلى درجة عالية من الكفاءة والوعي بطبيعة العلاقة بين العرب والصين وما يجري على الساحة الدولية من تطورات سياسة واقتصادية. ويعود الفضل في اختيار أعضاء الفريق للصديق الدكتور همام غصيب أمين عام منتدى الفكر العربي الذي كان حريصا على تمثيل العرب على أفضل وجه ممكن حتى يكون بإمكانهم كسب احترام الصينيين وإقناعهم بجدية العرب في تعزيز العلاقات العربية الصينية وخلق قناة دائمة للحوار والتواصل البناء بين الطرفين.

تشير التعليقات المختلفة التي صدرت عن كلا الجانبين إلا أن الحوار أتاح المجال لتبادل الآراء بصراحة، وساعد كل طرف على التعرف على وجهات نظر الطرف الآخر، مما أدى إلى كشف عمق الهوة التي تفصل الموقف العربي عن الموقف الصيني فيما يتعلق بدور الصين الممكن والمحتمل على الساحة الدولية. إن اهتمام العرب بقضايا فلسطين والعراق والأمن لم يقابل بإهتمام مماثل من جانب الطرف الصيني. ويمكن القول إن الفريق العربي خرج بقناعة بأن الصين غير معنية كثيرا بتلك القضايا في المرحلة الراهنة وربما لن تكون مهتمة بها في المستقبل القريب بالقدر الذي يرغبه العرب ونعتقد بأن الظروف الدولية ومكانة الصين تحتمه. وعلى سبيل المثال، بالرغم من الضغوط العربية على الطرف الصيني لإعلان موقف مؤيد للموقف العربي حيال قضية القدس، إلا إن الصينيين لم يغيروا موقفهم الذي يدعو لإنسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلت عام 1967 وإقامة دولة فلسطينية. وهذا يعني أن الموقف الصيني يتفق ضمنا مع الموقف الأمريكي الذي يُخضع القدس والمستعمرات الإسرائيلية في الضفة الغربية للمفاوضات.

قامت أمريكا في أعقاب الحرب العالمية الثانية بفرض نظام على العالم سمح لها بالهيمنة على العديد من الدول والشعوب، وأتاح لها المجال بعد انتهاء الحرب الباردة لنشر فكرة العولمة وتمكينها من

التوسع لتشمل الاقتصاد وحرية التجارة والثقافة. لكن كان على أمريكا في المقابل أن تدفع تكاليف إقامة ذلك النظام من النواحي المالية والعسكرية، وتخصيص الوقت والجهد المطلوب لإدارته وتعزيزه. وكما يشير التاريخ، تسببت نظم الهيمنة في الماضي في إلحاق أضرار بكل دولة مهيمنة بسبب ارتفاع تكاليف النظام الذي أقامته وفرضته على الغير، وسمح للعديد من الدول المنافسة باستغلال ما وفره النظام من استقرار وفرص اقتصادية لتحقيق أهداف اقتصادية وغير اقتصادية دون المشاركة في تحمل تكاليف النظام القائم. واعتقد أن الصين تحاول اليوم تحقيق الاستفادة القصوى من نظام الهيمنة الأمريكي وما يوفره من عولمة اقتصادية لبناء اقتصادها بالسرعة الممكنة كي تغدو دولة عظمى بعد أن أصبحت دولة كبرى. لكن الصين تهمل الجانب الثقافي بالرغم من أن العولمة الثقافية ربما كانت أهم من العولمة الاقتصادية بسبب ما للثقافة من تأثير على حياة الشعوب وطرق تفكيرها ومواقفها على المدى الطويل.

وهذا يعني أنه ليس لدى الصين الاستعداد الآن لاتخاذ مواقف تجاه قضايا دولية وإنسانية لا تمس مصالحها الاقتصادية والأمنية بشكل مباشر قد تقودها للتصادم مع أمريكا. وحيث أن الصين تستفيد من علاقتها بإسرائيل التي تقوم بدورها بسرقة الكثير من الأسرار التكنولوجية العسكرية الأمريكية وبيعها للصين، فإن القيادة الصينية رأت على ما يبدو أن مصالحها تحتم عليها اتخاذ موقف من القضية الفلسطينية يساوي بين إسرائيل والعرب. ولذلك يقول المسؤولون الصينيون إن الدعوة لانسحاب القوات الإسرائيلية من الضفة الغربية وإقامة دولة فلسطينية يشمل ضمنا الدعوة لانسحاب إسرائيل من القدس وبالتالي ليس هناك داعي للتعامل مع قضية القدس بشكل مستقل. ولقد وجدت الصين في قرارات هيئة الأمم المتحدة ودعوة الإسرائيليين والفلسطينيين للتفاوض غطاء كافيا لاتخاذ موقف شبه مؤيد لوجهة النظر العربية وغير متناقض مع وجهة النظر الإسرائيلية والأمريكية، وبالتالي الابتعاد عن المبادئ التي التزمت بها لعقود في الماضي القريب. وعلى سبيل المثال، يقول الصينيون إن أمريكا لا تسمح لهم بالقيام بدور أكثر فاعلية في الصراع العربي الإسرائيلي، وأن الرباعية الدولية (أمريكا والاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة) لم تدعو الصين للمشاركة في عضويتها، وبالتالي فإن الموقف الحالي يصبح أقصى ما تستطيع الصين القيام به، أو بشكل أكثر دقة، أقصى ما ترغب الصين القيام به، على الأقل في الوقت الراهن.

قد يبدو هذا الموقف منسجما مع نفسه وطموحات الصين التي تقتصر على الاقتصاد دون غيره، لكنني لا اعتقد أن أمريكا أو إسرائيل ستسمح لها بالوقوف عن هذا الحد. إن أمريكا تضغط بشكل كبير ومتزايد على الصين كي تقوم بتعديل سياستها المالية ورفع قيمة عملتها الوطنية على أمل أن يساهم ذلك

في تعديل الميزان التجاري بين البلدين، كما أن إسرائيل، وكما عرفها العالم القريب منها والبعيد عن الصين، لن تكتفي بموقف محايد، بل ستضغط للحصول على المزيد حين تشعر بأن حاجة الصين لما لديها من تكنولوجيا عسكرية أصبحت أكثر إلحاحاً.. إن العرب، وربما شعوب العالم الثالث عامة في طريقهم لخسارة الصين وما تشكله من ثقل اقتصادي وسياسي واستراتيجي على الساحة الدولية، مما يعني أن على شعوب ذلك العالم أن يعتمدوا على أنفسهم أو يتطلعوا إلى الطرف الآخر من العالم، إلى البرازيل عليها تمد يد العون لهم وتساعدهم على تجاوز الظلم والتخلف والفقر، وتحقيق التنمية والنمو.

تشير كل المؤشرات إلى إن الصين تسير على خطى الدول الآسيوية التي سبقتها على مضمار التقدم الاقتصادي والتطور التكنولوجي، وذلك بالعمل على بناء "دولة تجارية" تحل محل الدولة القومية التقليدية التي عرفها المجتمع الدولي على مدى القرون الثلاثة الأخيرة. فالقيادة الصينية تعمل على تحويل الصين إلى شركة مساهمة تهتم بعمليات الإنتاج الصناعي وتسويق بضائعها في الأسواق العالمية، وتحقيق أكثر ما يمكن تحقيقه من أرباح في المدى القصير دون اهتمام حقيقي ببناء جسور ثقافية مع الشعوب التي تتعامل معها. وهذه هي السياسة التي اتبعتها اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وغيرها من دول آسيوية. إن قيام تلك الدول بإهمال ضرورات التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى وبناء جسور مع مثقفيها وشعوبها، والتعاطف معها وتأييد قضاياها العادلة ومساعدتها مالياً وتكنولوجياً، أدى إلى فشل الدولة التجارية عامة في كسب أصدقاء لها في العالم. إن مما لا شك فيه أن اليابان نجحت نجاحاً باهراً في تحقيق فوائض مالية كبيرة نتيجة لما حقته من تقدم اقتصادي وتكنولوجي وإنتاج بضائع بأسعار تنافسية مكنتها من غزو الأسواق العالمية. لكن ابتعاد هذه الدولة عن إقامة علاقات ثقافية من شركائها جعل من السهل قيام أولئك الشركاء بتغيير وجهتهم وشراء احتياجاتهم من دول منافسة تتمتع بنفس المزايا الاقتصادية، وذلك كما يحدث اليوم مع الصين. نتيجة لذلك، ليس بإمكان اليابان أو غيرها من دول تجارية الإدعاء بأن لها شعب صديق في الشرق أو الغرب، في آسيا أو أوروبا، في أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو أفريقيا. وهذه ليست من صفات الدول العظمى ولا تخدم مصالحها على المدى الطويل.

وفي المقال التالي سأحدث عن الجانب الثقافي من زيارتنا وحوارنا مع المفكرين الصينيين.

د. محمد عبد العزيز ربيع www.yazour.com